(الحريم الثقافي) 3/2

التفكيك ليس منهاجاً ولا حلاً لكنه موقف من المركزية الأوربية

لا شك أن كتاب سالمة الموشي يعد جملة اعتراضية في الكتابة النسوية السعودية ، ليس لأنه طفرة نقدية ظهرت بشكل مفاجئ على السطح ، ولا لأنه صوت نقدي جاء من وسط المجتمع النسوي ؛ وإنما لأنه يمتلك بعض الجرأة لمناقشة تخوفات يخشى الجميع من الوصول بها إلى امتداد خطها اللانهائي ، فالموشي قالت ولم تقل ، ألمحت ولم تصرح ، وبالتالي فإن القراءات التي ستقاطع مع طرحها ستفعل مثلما فعلت الموشي ، فحين نشر نجيب محفوظ روايته : (أولاد حارتنا) أتهم في عقيدته ، ولم يزد في جوابه عن مثل هذا الاتهام أكثر من قوله : إنه لم يقصد ما ذهب إليه المعترضون ، ولم يدخل في مزيد من التفصيل والتفسير ، ومن جانب آخر توقف التيار الديني عند حدود اتهامه بالإلحاد دون مناقشة الفكرة من قريب أو بعيد ، وهذا ما تكرر فيما بعد حول العديد من القضايا ، آخرها الرسوم المسيئة للرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- في الدنمارك فقد نهض العالم الإسلامي كله للرفض والإدانة والاستنكار ، وهو من أبسط الواجبات التي يمكن القيام بها ، لكن هل طُرحت تساؤلات عميقة تسعى لقراءة الحدث والرسوم بشكل عقلاني ؟! هل تم رسم خطط إستراتيجية بعيدة المدى تتناسب مع رؤية أناس علمانيين لا يؤمنون بالفكر الديني وإن تشبثوا بكلمات من قبيل أنهم مسيحيون ؟! وهل استطاع القساوسة الذين دافعوا عن رؤية الرسوم أن يتحدثوا بشكل عقلاني نستطيع أن نتفهمه ؟! بالطبع لم يكن حديثهم سوى ترديد للأهازيج الشعبية الموروثة في العقل الغربي منذ ظهور الإسلام وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، ونحن أيضاً تعودنا على ترديد ما هو موروث دون التوقف للتفكير فيما يستحق أن نستخدمه من هذا الموروث ومالا يستحق .

وهكذا في الغالب تأتي المواقف أمام الطرح المخالف لما هو ثابت ومعتاد ، فأغلب من يكتب لا يستطيع أن يطلق العنان لكتابته ، لا يستطيع أن يناقش فكرته على امتدادها ، وإن حاول فإن فكرته ستضيع في ثنايا الخطاب اللغوي ؛ لأنه يحمل هاجس التوجس ، كما حدث مع الموشي ومع القراءات التي تقاطعت مع كتابها ، وكما حدث مع نجيب محفوظ الذي آثر الصمت طيلة خمسين عاماً من كتابة نصه ، الكل يتوقف ولا يريد الدخول في المناطق الأكثر صعوبة ، فالموشي حين تتحدث عن جدلية العلاقة بين الذات الأنثوية والعقل الجمعي ترتكز على كتاب :(الإصابة في منع النساء من الكتابة) ، وهو نفس الكتاب الذي قالت عنه أنها لم تستطع العثور عليه ، وأكدت في الهوامش أنه ربما يكون مجهول المؤلف ، لكنه أثر في العديد من الكتابات لدى الكثيرين ، وكأن هذا الكتاب دستور العقلية الجمعية أو الضمير الجمعي حسب تعبير دوركايم ، وهو أمر لا

يمكن تصوره ، فلا يوجد كتاب واحد يمكنه أن يكون ضميراً جمعيًّا مهما كانت بلاغته وأهميته فيما عدا القرآن الكريم ، والقرآن نفسه أخذ وقتاً طويلاً وحروباً كثيرة وصراعات جمة حتى استقر في نفوس الأوائل وأصبح ليس مصدراً للتشريع ـ فهذه مهمته الأولى ـ ولكن ضميراً يحكم تصرفات الناس ورؤاهم وطرائق تفكيرهم .

وبالتالي لا يمكن القول بأن الكتاب المنسوب لخير الدين ابن أبي الثناء الذي لا وجود لذكره ولا لكتابه في معجم الأعلام للزركلي حسبما قال د. مصطفى عبد الواحد في الهامش الذي وضعته الموشي نفسها في كتابها ، لا يمكن القول بأن كتاباً يمكن أن يكون المكون للفكر الجمعي الذي يحكم الجماعة العربية ، ولا بد أن يكون الحاكم قادماً من مصدر أكبر مصداقية وأعرق حضوراً وأقوى تأثيراً .

وهنا يأتي الحديث الموارب الذي لم تستطع الموشي قوله ولا نستطيع نحن أيضاً ، ومن ثم فسوف تتكسر الأفكار ولن تمتد إلى نهاياتها ، لكن هذا التكسر لا يصيب الفكر النسوي وحده بالبقاء في نقطة اللامكان وإنما أيضاً الفكر الذكوري على حد سواء ؛ بمعنى أنه يصيب المجتمع كله بالبقاء خارج المتن ، لأن الجماعة البشرية هنا لا تتدرب على التواتر في إنتاج الأفكار ، ولكن تتدرب على أن هناك حدوداً للفكر، في حين أن الأمر مختلف تماماً في المجتمعات الأخرى ، مما يزيد من سرعتها في التوجه نحو المستقبل وكشف أغوار المجهول الإنساني والكوني ، بينما نحن لا نتقدم خطوة إلا بصراع طويل على مدى سنوات طويلة ، وفي النهاية نظل طيلة الوقت خارج المتن العالمي .

هذه واحدة من النقاط المهمة التي أشار إليها كتاب (الحريم الثقافي) ، لكنه لم يتوقف أمامها بالتفنيد أو المباشرة ، فجاءت مقولات مثل ناقصات عقل ودين ، وعاطفيات لا عقلانيات وغيرها لتوحي بالمعنى المراد ، وهو المعنى ذاته الذي تعرضت له العديد من الروايات الصادرة حديثاً ، وهذا ما يدفعنا إلى منطقة أكثر غوراً لمعرفة الدوافع الثاوية خلف تنامي الخطاب السردي الجديد في بلد يلفه سياج من الخصوصية ، وربما يجيء السؤال عن دور النشر ، فأغلب الروايات الجديدة صدرت من دور نشر عربية ، وبالأخص من لبنان وسوريا ، ثم القاهرة والمغرب بالمرتبة التالية ؛ وهذه الدور علاقة ناشريها قوية نشطة بالآخر ، ويمكننا إجمال ذلك بكلمة الغرب ، وهذا الآخر يسعى دوماً نحو الروايات التي تتحدث عن القهر الاجتماعي ، ومعاناة فئة من قهر السلطة والأغلبية الحاكمة وغيرها ، بمعنى أن ما يسمى بمرحلة ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية تسعى للاهتمام بالأقليات أو الإثنيات ، وتلح على بعثرة العالم للتعرف عليه ، حتى أسقطت السرديات الكبرى وهدمت اليقينيات .

ومن هنا أصبحت الحركات النسوية جزءًا من هذا التفكيك الاجتماعي القائم على ثنائية الذكورة والأنوثة، وأخذ الغرب يُبدي اهتماماً بهذه الجماعات التي رأى أنها مقهورة ومغلوبة على أمرها، ولتدعيم هذه الأفكار راحت جماعات المجتمع المدني

تغذي وتُنشط ما أسمته بحقوق الأقليات والنسوية والخلافات العرقية والإثنية في العالم، وناصرت كل كتابة أو فعل في هذا الاتجاه ، ولما كان المجتمع الشرقي في مجمله متهم بالاستبداد ، وهو محط أنظار الجميع لما به من ثروات وماله من جغرافية إستراتيجية فقد صار محطة العمل الأولى في أجندة جماعات المجتمع المدني ، ولعل مفردات هذه الأجندة مطروحة الآن للجميع ، بدءاً من الحريات بشتى أنواعها وانتهاء بالديمقراطية والتعددية وغيرها من المفردات التي سادت مؤخراً ، وغدت الأعمال الأدبية والفكرية التي تعزف على هذا النغم تحظى بمزيد الاهتمام ، سواء بالنشر أو الجوائز أو الترجمات أو حضور أصحابها المؤتمرات العالمية ، فاتجهت أنظار الروائيين الجدد - ؛ لأن الروائيين هم الأقدر على فضح الواقع عن طريق تمثيله - نحو المكتسبات التي يمكن الحصول عليها من هذا المجتمع المدني .

ما نود الذهاب إليه أن هذه العناية الخاصة لم تجعل الكتابة أمينة ، ولا الضمائر نزيهة بقدر ما صارت مرتبطة بهدف تسعى نحوه ، وآخر ترجو استرضاءه وإمتاعه .

ويكفي التدقيق في أغلب ما تطرحه الروايات الجديدة ليس في واقعنا المحلي وحده ، ولكن المشهد العربي بشكل عام ، لنقتنع بأن هذه الروايات أصبحت تقوم بعمل المستشرقين قديماً ، ففكر الاستشراق في القرنين الثامن والتاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كان يقدم تمثيلاً للواقع حسبما ذهب إدوار سعيد في كتابه (الاستشراق) ، فالمستشرقون لم يكتبوا ما كتبوا عن الواقع الشرقي ، ولكن عن شرق كان يحلم أن يقرأ عنه القارئ الغربي ، عن مجتمع الخيمة والشهوة والنسوة المخبآت والتخلف والقهر والاستبداد .

هذا الفكر الاستشراقي الذي تعاون مع الاستعمار ولعبا دوراً كبيراً في تهيئة الأذهان الغربية لقبول وتصديق أن بريطانيا العظمى وفرنسا التنويرية ذاهبتان إلى الشرق لا لاستعباده واسترقاقه ولكن لتنويره وتحديثه، وأن الوصاية والحماية وغيرها من المفردات الكوزموبوليتانية ضرورة لجعل هؤلاء البشر يلتحقون بركب الحضارة الغربية ، وهذا ما تقوم به الروايات الجديدة التي تبرز القهر والعنف والتحكم وسيادة الرجال على النساء ، فباسم هذه الحقوق يتدخل الغرب لا لحماية البشر وإنقاذهم من آلة القهر الجهنمية ولكن لتحقيق مصالحه ، وبالتالي فإن الرواية التي تتسق مع مفردات الأجندة الغربية تحقق أكبر المبيعات والترجمات والمؤتمرات وكأنها فتح غير مسبوق ، ولا أظن القارئ يحتاج أمثلة لهذا النوع من الأعمال فهي ملئ السمع والبصر .

نعود من جديد إلى (الحريم الثقافي) فربما ابتعدنا عنه لكنه ليس الابتعاد المنبت الصلة ، فالكاتبة قالت :" اختلقت لغة المرأة كتابة نسائية محض ، مدارها المحوري التعبير عن القهر والقمع الاجتماعي والأسري في سرد بكائي طويل "، وهذا ما حاولنا توضيحه كمفردات للأجندة الغربية المربحة ، ولاسيما وأن التفكيكية والفكر النسوي بدآ منذ أوائل سبعينات القرن الماضي ، لكن هذا الفكر لم يصل إلينا إلا بعد عقدين ،

وخلالهما بدأت الأقلام النسائية تبرز بشكل لافت وتثبت حضورها في المشهد المحلي، ثم تستكمل الموشي قائلة : " لم تتمكن من خلالها أو عبرها من أن تصل بالنص / الأدبي إلى الخطاب التفكيكي ...، وإذ أقول تفكيكيًّا لا يعني محو ما هو أنثوي في بنية الخطاب أيًّا كان سياقه ، سرداً ، أو شعراً ، أو حضوراً ، إنما بشكل ما القدرة على التناول الواعي لما هو جوهري ، بالتحكم بسياق الوعي لا تركه على عواهنه " .

وقبل أن نتداخل مع الموشي في جملتها الأخيرة نؤكد أن ما تهدف إليه هذه قراءتنا ليس الانتقاد أو الاختلاف ولكن السعي نحو الكشف وبيان الصورة الغائمة ، وفتح مسارات للحدث حول قضايا مهمة أثارها كتاب (الحريم الثقافي) ، لذا نتوقف أمام كلمتي الخطاب التفكيكي من جانب والتحكم بسياق الوعي من جانب آخر ، فالسياق نسق ، والنسق رؤية شبه مؤدلجة لأنها تنطلق من فكرة شبه متبلورة مسبقاً ، والتفكيكية ليست خطاب لأن الخطاب فلسفة ، والتفكيكية حسب رأي دريدا :" تَنوعٌ في التفكيك الذي ليس فلسفة ولا علماً ولا منهجاً ولا مذهباً " ، أو بمعنى أكثر دقة حسبما عرَّفها خصوم دريدا : " هي اللاهوت السلبي " أي أنها ضد أي تشكل أو اتخاذ هيئة، وهي المقابل السلبي لكل ما هو متجسد في أذهاننا من مفاهيم ، وبالتالي لا يمكننا أن نعتبرها خطاباً لديه القدرة على التناول الواعي لما هو جوهري يمكنه من التحكم في سياق الوعي .

وبالطبع إذا كان هناك خطاب يتحكم في سياق الوعي فإنه يتحكم به لصالح نسق أو فكرة مسبقة ، وهذا ما نفاه دريدا مطلقاً من فكرته ، فالتفكيك ربما يكون ذا قدرة على التفسير لكنه لا يطالب بوضع الأفكار في نسق ، لا يطالب بتوجيه الفكر ، ولا صناعة خطاب ولا معرفة مسبقة أو غير مسبقة ، إنه هكذا وقد أجمل دريدا نفسه التهم التي ساقها له خصومه في قوله : " التفكيك نسبيّ ، تشكيكي عدمي، غير عقلاني ، عدو التنوير ، حبيس اللغة القديمة والبلاغة ، يجهل التمييز بين المنطق والبلاغة وبين الفلسفة والأدب ... إلخ " ، وقد هزأ دريدا بكل هؤلاء الخصوم وما ساقوه من تهم مرجعاً ذلك إلى عدم فهمهم .

ولسنا أكثر معرفة من خصومه بثغرات منهجه التفكيكي ، لكننا نعتقد أن الموشي جانبتها الدقة في استخدامها فكرة التفكيك للبحث عن منهج يمكنه النهوض بالخطاب الثقافي النسوي في واقعنا المحلي ، وربما جاز لنا توجيه هذا الخطاب (التفكيك) إلى نقد المركزية الأوربية لا إلى واقع ثقافي نسوي لمَّا يزل في طور البدايات والتشكل .